ثقافة

التجربة الجماعية تتكون شعرا

ليست فلسطين حيزا مكانيا. انها تتجاوز الامكنة لتصير زمنا عربيا . لكن محمود درويش لا يمسك بالزمن العربي بوصفه تتابعا للحظات تجري ، او بوصفه خطا تطوريا متماسكا . فلا مكان لتتابعية الماضي ولتشنج الحاضر او لافق المستقبل . يعتقل درويش الزمن لحظة انفجاره ، لذلك يقيم زمنا من طبيعة خاصة . زمن الولادة التي تتحلق حول آلام المخاض ، وتتكثف في لحظة الانفجار . يستحيل الزمن العربي لحظة انفجار واحدة، داخل تداعيات الصراع ، ليتجاوز الافق المسدود عبر اختراقه مباشرة ، من ضمن قدرة اللغة على رسم لحظة الموت داخل هذا الافق الذي ينفجر .

في « يوميات الحزن العادي »(*) نتعايش مع نمط جديد من الكتابة الابداعية . فنحن لسنا أمام قصائد نثر . ولسنا كذلك امام مجموعة من الذكريات او القصص القصيرة . والكتاب ليس مجموعة مقالات متفرقة . انه سياق . لوحة واحدة يخترقها سهم الحزن من أقصاها الى أقصاها ، وحين يرتطم السهم بوسط اللوحة — السياق ، ينفجر السهم وتتناثر الالوان . أمام هذا المنطق الداخلي تعجز الكتابة عن ملاحقة السياق . فتستريح على اطراف الانفجار لتحاول كتابة مقدمات تحليلية تعتقد انها قادرة على الايصال من خلال التحليل . لكنها تعجز عن ان تتشكل وسط اللوحة، فتقيم تداعياتها على الاطراف ، وترسم لنا خطا كاملا للزمن العادي الذي يتحرك على جوانب انفجار « الحزن العادي » .

عندما ترسم الكتابة زمنا جديدا ، فان التعامل معها يخرج عن دائرة الرجع المباشر . فالرجع المباشر ، يستطيع في أفضل حالاته ان يرسم أفقا يحكمه منطق عادي . الانفعال منطق عادي . لذلك يعجز التحليل عن التواصل مع نصوص تغش . عندما نتصفح الكتاب نشعر اننا أمام هذا الدق القديم على الباب الفلسطيني . لكننا عندما ننتهي من قراءته ، نعود من جديد مهملين أطراف اللوحة. مهملين الدق القديم الذي يلبس ثيابا موضوعية . لنعود فنعيش مع لحظات الانفجار وحدها . الكتابة التحليلية التي صاغها درويش على اطراف الاحزان تسير متمهلة ، تبقى مخلصة للعنوان « فصول ومقالات وخواطر عن تجربة المؤلف في ظل الاحتلال الاسرائيلي ، وعن بعض جوانب الصراع العربي الاسرائيلي ، حتى الفترة التي سبقت حرب السادس من اكتوبر ١٩٧٣ » . نتوقف عن القراءة. ثم ماذا . كتابة تشبه التحليل تذكرنا بأن ما يجري على ارض فلسطين هو الدماء . تشهد عن حالة العربي فيما هي تروي حكايات « كفرقاسم ». تحمل حقائبها وتسافر في « حالة الانتظار » . تتوقف في « أقرت » و« كفربرعم » . تنتهي من القراءة . دق على الباب الفلسطيني . شهادة حية وواقعية . وثيقة اتهام . ثم تفتح الكتاب من جديد . تقرأ وسط اللوحة . هذه ليست كتابة . انها مسامير . محمود درويش يلم المسامير عن الارض ويزرعها على الورق ، فتنغرس المسامير في العيون ويظلون الكتاب بالدماء . يتساقط الانفعال وتبقى اللحظة الشعرية . حوار بألسنة متعددة

---

* محمود درويش ، **يوميات الحزن العادي** ، مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية والمؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت، كانون الاول ١٩٧٣ .